التفكير عند علماء النفس

تعريف التفكير:

عرف علماء النفس التفكير بتعريفات كثيرة، أهمها ما يلي:

١ ـ النشاط الذي يحل به الشخص المشكلة مهما كانت طبيعته سواء تطلب هذا النشاط تفكيراً أكثر أو أقل حسبما يكون الموقف أكثر أو أقل إشكالاً. وعلى ذلك فإن التفكير يتضمن شيئين أساسيين: الأول مشكلة تعرض والثاني خطة تحدد كيف ينجح الفرد أو يفشل في إنتاج الإستجابة المناسبة.

٢ ـ العملية التي ينظم بها العقل خبراته بطريقة جديدة لحل مشكلة معينة أو هو إدراك علاقة جديدة بين موضوعين أو بين عدة موضوعات بغض النظر عن نوع هذه العلاقة. وعلى هذا الأساس نجد أن التفكير مظهر من مظاهر الذكاء يمكن تدريبه وتنميته في الفرد.

٣ ـ عملية أخذ المعلومات التي يدركها الإنسان ومزجها مع تلك المعلومات التي يتذكرها ليكون منها تنظيمات أو تشكيلات

جديدة بقصد الوصول إلى نتائج مرغوبة في المستقبل[1].

٤ ـ التفكير هو استخدام الوظائف النفسية لحل مشكلة من المشكلات فتصاغ لها الحلول في إحكام، ثم يحاكمها العقل للفوز في الحل النهائي[2].

٥ ـ التفكير هو أعلى أشكال النشاط العقلي لدى الإنسان. فهو العملية التي ينظم بها العقل خبراته بطريقة جديدة كحل مشكلة معينة أو إدراك علاقة جديدة بين أمرين أو عدة أمور[3].

هذه المجموعة من التعاريف الكثيرة التي عرف بها علماء النفس التفكير، ويلاحظ تشابه كبير فيما بينها، غاية الأمر أن بعض هذه التعاريف يبدي بعض جوانب التفكير كالتعريفات. الثاني والثالث والرابع، حيث أشار كل منها إلى أن إدراك العلاقات بين الموضوعات،وعملية مزج المعلومات وتشكيلها على هيئة جديدة بقصد الوصول إلى نتائج مرغوبة في المستقبل، ولهذا فإن الباحث في كتب علم النفس يتعذر عليه الحصول على تعريف محدد للتفكير.

---

(١) علم النفس التربوي أسسه النظرية والتجريبية (صـ ١٠٢) د/ سيد خير الله ـ دار النهضة العربية ـ بيروت (١٩٨١).

(٢) بحوث في علم النفس العام (صـ ١١١) د/ فائز محمد علي الحاج.

(٣) علم النفس التربوي (صـ ٣١٦) د/ رجاء محمود أبو علام ـ دار القلم ـ الكويت.

معنى التفكير

التفكير من أهم الخصائص التي يتميز بها المخلوق الإنساني الذي خلقه الله سبحانه لعبادته، واستخلفه في الأرض لعمارتها والإستفادة بخيراتها، ولما كانت مسيرته في الحياة تحتاج بطبيعة الحال إلى التجديد المستمر واستحداث الأدوات والآلات ليحقق الإستخلاف على وجه صحيح، ولما كانت مسيرته بطبيعة الحال تعترضها بعض العقبات التي تتطلب تفكيراً دقيقاً للتغلب عليها وتذليلها، فإنا بذلك نستطيع أن ندرك أهمية التفكير في مسيرة الحياة الإنسانية في جميع جوانبها الإعتقادية والنفسية والسلوك الإجتماعي والعلاقات العامة.

«لقد كرم الله الإنسان وميزه على الحيوان في مجالات نفسية عديدة. فدوافع الإنسان أكثر تنوعاً، وملاحظته أشد، وهو أسرع تعليماً وأحد ذكاء. بيد أن الوظيفة النفسية الأساسية التي توجد عند الإنسان دون سائر الحيوان إنما هي التفكير.

فإذا وقف الإنسان أمام مشكلة، فإنه يفكر فيها قبل أن يجرب حلها عملياً أي أنه يتصور الحلول ويضع الخطط في ذهنه، مستفيداً من خبراته وتجاربه الماضية ومن مختلف وظائفه النفسية من تصور وإدراك وتذكر، ثم يناقش المشكلة أو يحاكم حلولها المختلفة التي ترد

إلى ذهنه ويجرب في ذهنه كل حل ليرى ما يترتب عليه من نتائج وهكذا حتى يصل إلى الحل الصحيح»[1].

ومن هنا يظهر أن التفكير إحدى نعم الله سبحانه على الإنسان إذْ خصه بهذه الميزة وفضله على كثير ممن خلق.

يؤكد كثير من علماء النفس تأثر تفكير المراهق ببيئته وأنواع النشاط الممارس فيها مما يجعله ينزع إلى التفكير ليتمكن من التكيف الصحيح مع بيئته الإجتماعية.

«يتأثر تفكير المراهق بالبيئة تأثراً يحفزه إلى ألوان مختلفة من الإستدلال وحل المشاكل حتى يستطيع الفرد أن يكيف نفسه تكيفاً صحيحاً لبيئته المعقدة المتشابكة المتطورة مع نموه، ولهذا نرى أهمية الخبرة الواسعة العريضة في نمو تفكير المراهق هذا وتؤكد أبحاث (بروكس F. D. Broeks) وغيره من العلماء أهمية هذه البيئة في نمو تفكير المراهق، ذلك أنها تسفر في جوهرها عن نوع مدى وشدة المشكلة التي يعالجها المراهق.

وترتبط هذه الظاهرة ارتباطاً وثيقاً بنمو الذكاء وبمدى تأثره بحوافز البيئة التعليمية والمستويات التحصيلية...

هذا وتقترب مفاهيم المراهقين في مستوياتها العليا الصحيحة من التعميم الرمزي، ولهذا يستطيع المراهق أن يفهم الخير والفضيلة والعدالة، بينما يعجز الطفل عن إدراك هذه المفاهيم المعنوية... وتؤكد دراسة (ميلر E. miller) و (تسانر J. Tanner) وغيرهما من الباحثين ميل المراهق في حل مشاكله العملية والعقلية إلى فرض الفروض المختلفة، وإلى تحليل الموقف تحليلاً منطقياً منسقاً،

---

(١) بحوث في علم النفس العام (صـ ١١١) د/ فائز محمد علي الحاج.

ويصطبغ استدلال الفرد في أوائل مراهقته بالصبغة الإستنباطية، ثم يتطور به النمو حتى تغلب الناحية الإستقرائية على استدلاله حتى يصل إلى مرتبة سوية من المرونة العقلية التي تهيؤه لمواجهة الموقف بالطريقة المثلى، استنباطاً كانت أم استقراءً.

وهكذا نرى أن العالم الفكري للمراهق أكثر تناسقاً وانتظاماً من عالم الطفل، وأكثر معنوية وتجريداً، ولهذا يستمتع المراهق بالنشاط العقلي، ويلذ له أن يمضي وقتاً طويلاً في مهمة الفكر العميق لكل ما يحيط به. . .»[1].

لا شك في أن المراهق يتأثر بأصول التربية السائدة في بيئته، لكن تأثره لا يمنع من خروجه على هذه الأصول إذا كانت لا تناسب فطرته التي فطره الله عليها، ولعل هذا أحد أسباب أزمات المراهقة في البلاد الكافرة التي تعبد من دون الله آلهة أخرى، لا تملك لهم ضرا ولا نفعاً ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً، لذا فإن المراهق أبان نضجه العقلي لا يقنع بالأصول الفكرية الخاصة بهذه الآلهة المزعومة، لهذا فإنه يشكل لنفسه أسلوباً تفكيرياً ليعالج موقفه منها، ولهذا نجد كثيراً من علماء النفس يحصرون التفكير في مجال حل المشكلات التي تواجه المراهق.

«. . لا يوجد التفكير إلا إذا جابهت الكائن الحي مشكلة معينة، والمشكلة بدورها لا توجد إلا إذا وجد الفرد في موقف معين له فيه غرض معين يود الوصول إليه، إلا أنه لا يستطيع الوصول إلى هذا الغرض عن طريق أساليب سلوكه المعتاد، بمعنى أن المشكلة توجد حينما يحول حائل معين دون الفرد وتحقيق غرضه، وحين يكون

---

(١) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة (صـ ٢٨٨) د/ فؤاد البهي السيد.

الطريق مفتوحاً أمامه، فإن الفرد لا يحتاج لإستعمال تفكيره، فالتفكير يحدث حينما يعمل العقل للتغلب على المشكلة التي تواجهه في موقف معين».

ويجب أن نشير إلى أن التفكير ينتمي إلى أرفع مستويات التنظيم المعرفي إذ أنه يتعلق بالمستوى الرابع، وهو مستوى إدراك العلاقات واستعمالها، والعلاقة هي أرقى مستويات العمليات العقلية جميعها، لأنها تتطلب نشاطاً عقلياً أعقد وأصعب من المطلوب في المستويات الأخرى، فالعلاقة هي المعبرة عن القدرة العقلية العامة، ووظيفة هذه القدرة أن تعمل على تكامل الوظائف العقلية جميعاً، في مختلف مستوياتها وهذه القدرة هي ما عبرنا عنه بالذكاء.

فالتفكير إذن مظهر الذكاء، وإن كان غير متحد معه، فالتفكير يمكن تدريبه، بمعنى أن من أعراض التربية الصحيحة تدريب النشيء على التفكير العلمي أو بعبارة أخرى، مساعدة النشيء على إكتساب عادة فكرية صحيحة لأن التفكير من حيث هو وظيفة أو مظهر من مظاهر النشاط العقلي يمكن تدريبه وقدحة وتوجيهه وجهة معينة، وفق شروط التعلم العامة[1].

لقد بينت فيما سبق أن القرآن الكريم لا يحصر التفكير في حل المشكلات التي تواجه الإنسان، بل يحمل الإنسان على التفكير في كل شأن من شئون حياته.

وأود أن أنبه إلى أمر هام، وهو أن ما توصلت إليه الدراسات الحديثة بخصوص موضوع التفكير وأنه مظهر من مظاهر النشاط العقلي، وأنه يمكن تدريبه وقدحه وتوجيهه وجهة معينة، فهذه

---

(١) علم النفس التربوي (صـ ٥٠٤) د/ أحمد زكي صالح ـ النهضة المصرية الطبعة الحادية عشر.

الدراسات التي يزعم أصحابها بأنها وليدة هذا القرن الذي نعيش مسبوقة بأصول التربية الفكرية في القرآن الكريم بثلاثة عشر قرناً تقريباً.

ويكشف بعض الباحثين ميل المراهق إلى أن تكون أفكاره على مستوى رفيع، وأنه أصبح قادراً على دمج وجهتي نظر أو أكثر فيشكل منها وحدة موضوعية.

«لكل عمر ولكل مرحلة مميزاتها الخاصة في جعل التفكير محدوداً، بينما نجد أن المراهق يتميز بحرية عقلية أكثر من الطفل، فإن المراهق يميل لتكوين أفكار على مستوى رفيع فيما يتعلق بكيفية تحسين المجتمع، مما يتداخل بطريقة مشوشة مع خططه الخاصة للمستقبل، إنه لا يميز فيما بين وجهة نظره الخاصة كشخص منظم لمستقبله، ووجهة نظر الجماعة الإجتماعية التي ينتمي إليها.

ومرونة التفكير التي يتم الوصول إليها في فترة التفكير الرسمي هي التي تساعد المراهق على التفكير في الإمكانيات العديدة المستقبلية، ومستقبل تطور المجتمع وبدلاً من أن يكون ذلك مرتبطاً بالجوانب الحسية للواقع «لماذا» فإنه يستطيع التفكير فيما هو ممكن، أي أن المراهق قادر على إدماج وجهتي نظر لأنه قد وصل إلى مستوى جديد في التفكير، ويختفي الخلط تدريجياً كلما أخذ الصغير دوره في القيام بأدوار الراشدين، وخاصة دور العمل أو القيام بعمل حقيقي»[1].

كما يذهب بعض الباحثين إلى أن المراهقين يوجهون كل اهتمامهم بالمشكلات الفكرية والقضايا السياسية والإجتماعية، بينما

---

(١) في علم نفس النمو (صـ ٣٦٥) د/ سعدية محمد بهادر ـ دار البحوث العلمية.

يأتي اهتمامهم بالمناهج بالدرجة التالية للموضوعات السابقة.

«ويلاحظ أن المراهقين يهتمون بالمشكلات الفكرية والقضايا السياسية والإجتماعية أكثر من إهتمامهم بالمناهج الدراسية، وأحياناً يبالغ المراهق في الإهتمام بهذه القضايا ويضفي عليها من الخيال والحماس الذي تتميز به هذ المرحلة ليوحي إلى الآخرين بأنه كبير ناضج يعرف كل شيء، ويشبع بذلك بعض حاجاته النفسية إلى الإستقلال والنضج وكثيراً ما يعجب المراهق بمظاهر البطولة في هذه المرحلة ويتجه إلى القراءة التي تشبع فيه هذه الرغبة، وقد يدفعه الإعجاب بشخصية ما إلى تمثلها أو إلى التوحد معها»[1].

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن تفكير المراهق غير محدود بإطار المشكلات التي تواجهه في بيئته، بل أنه يشمل البيئة الإجتماعية بما فيها من أهواء وأغراض والرغبة في التعرف على أسرار الطبيعة المحيطة به.

«إن مجال التفكير عند الطفل ضيق محدود، لا يعدو البيئة المادية الضيقة التي تحيط بذلك الناشيء، بينما نجد أن مجال التفكير في المراهقة أصبح يشمل البيئة الإجتماعية بما فيها من أهواء وأغراض، فمشكلة الحياة قد تغيرت من مجرد إشباع حاجات أولية بسيطة إلى تفهم الأغراض والأهواء الإنسانية، ومحاولة فهم منشأ الكون وحقيقة الوجود وأسرار الطبيعة المحيطة به.

إنه يحاول أن يخترق هذه الحجب التي تجعل عقله في حالة عجز عن الوصول للمعرفة وسبر أغوار الحقيقة الأبدية.

---

(١) دراسات سيكولوجية النمو (صـ ٢٩٠) د/ حامد عبد العزيز الفقي ـ قرطاسية العتيقي الكويت.

وكلما اتسعت البيئة الإجتماعية التي يعيش فيها المراهق، كلما شعر بعمقها ومداها وشعر برغبة في حل لغزها الأزلي العظيم»[1].

أستطيع أن أقول بعد عرض النصوص السابقة الخاصة بالدراسات التي تناولت التفكير في المراهقة، بأن التساؤلات التي تكثر من المراهق في هذه المرحلة تعد من قبيل الأمور العادية، حيث أن المراهق يهدف منها تحقيق المعرفة إن كانت التساؤلات تتصل بماديات الحياة الطبيعية، وإن كانت تساؤلاته تتصل بقضايا الدين وأصوله وتشريعاته وعباداته وآدابه فإنه يهدف منها تحقيق إيمانه العقلي مضافاً إلى إيمانه العاطفي (**التقليدي**) السابق، الذي عاشه في مجتمعه المسلم مع أسرته وفي مدرسته وناديه مع أترابه، وقد كان من قبل يتقبل المفاهيم الدينية دون مناقشة أو طلب للتعليل، فلم يكن يهمه أكثر من محاولة تطبيقها، لكنه اليوم وقد نما عقله نمواً مطّرداً لذا فإنه يتوق إلى مناقشة هذه المفاهيم ليتعرف على بعض أسرارها وحكمها، والقرآن الكريم يحث على التفكير الجاد المثمر في كثير من آياته التي لا تكاد تخلو سورة منه من الحث عليه إما بالعبارة أو الإشارة.

وهذا الأمر يستوجب على المربيين والدعاة تفهم حاجة المراهق إلى التفكير في جميع قضايا الحياة.

إن تساؤلات المراهق المسلم في مسائل الدين وقضاياه تدل على الصحة النفسية والعقلية للمراهق.

إن المراهق المسلم في المجتمع المسلم يجد في القرآن الكريم أصول التفكير السليم لجميع القضايا التي تهمه، كما يجد

---

(١) خفايا المراهقة (صـ ٥٧) معروف مصطفى زريق ـ المطبعة العمومية دمشق.

أنواعاً كثيرة من الفضائل ومجالات متعددة للخير والبر وهي فضائل مقدورة لجميع الأفراد كل بحسب استعداداته وإمكانياته، ولا يقف القرآن الكريم والسنة المطهرة عند حد الدلالة على الخير، بل يبين آثارها على الفرد والمجتمع، كما يحث المسلم على التحلي بها.

أنه من الواجب على المربين والدعاة تقبل أسئلة المراهق برحابة صدر وبشاشة وجه، ثم العمل على تبصيره بالأساليب الصحيحة للتفكير، وتعويده على أمثل الأساليب في صياغة أسئلته، لأن صيغة السؤال تلعب دوراً هاماً في التفكير.

إن حسن تفهم الداعية لحاجات المراهق الفكرية تضمن أن تسير المناقشة في إطار الموضوعية حتى نصل بالمراهق إلى درجة الإطمئنان واليقين، كما يجب الإبتعاد عن المجادلات العقيمة التي لا تثمر إلا التحدي وتعالي البعض على البعض، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ومحاولة كلا الطرفين التغلب على الآخر، وحين يشعر المربي أو الداعية جنوح المراهق إلى المجادلة العقيمة التي تهدف إلى الثرثرة والتشويش وجب عليه الإلتزام بمنهج القرآن الكريم في الجدال.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

---

(١) سورة النحل آية: (١٢٥).